الدعاء

لا أعني هنا الكلام عن فضل الدعاء.. وآدابه وشروط إجابته.. فهذا ليس له علاقة مباشرة بما نناقشه هنا «مهارات التعامل مع الناس».. وإنما أعني، كيف تجعل الدعاء مهارة في كسب الناس؟ وأوّل ذلك أن تدعو الله أيضاً أن يهديك إلى أحسن الأخلاق.. كما كان الحبيب ﷺ يدعو قائلاً:

اللهم لك الحمد.. لا إله إلا أنت.. سبحانك وبحمدك.. ظلمت نفسي.. واعترفت بذنبي.. فاغفر لي ذنوبي.. لا يغفر الذنوب إلا أنت.. اهدني لأحسن الأخلاق.. لا يهدي لأحسنها إلا أنت.. واصرف عني سيئها.. إنه لا يصرف سيئها إلا أنت.. لبيك وسعديك والخير بيديك..[1]

نعود إلى أصل كلامنا.. كيف تجعل الدعاء مهارة في كسب قلوب الناس..؟

الناس عموماً يحبون الدعاء لهم.. حتى عند السلام عليهم ولقائهم يفرحون إن دعوت لهم.. فمع قولك: كيف الحال وما الأخبار؟ أضف إليها: الله يحرسك.. الله يجعلك مباركاً.. الله يثبت قلبك..

ولا تكن عبارات دعائك مستهلكة أو اعتيادية مثل: الله يوفقك.. الله يحفظك.. نعم هي دعاء حسن لكن السامع اعتاد عليه حتى لم يعد يرن في أذنه عند سماعه.. وإن قابلت أحداً معه أولاده.. فادع لهم وهو يسمع.. الله يُقِرُّ بهم عينك.. الله يجمع شملكم.. الله يرزقك برهم.. ونحو ذلك..

أنا أحكي هذا عن تجربة.. لقد جربته كثيراً كثيراً.. فرأيته يسلب قلوب الناس سلباً..

(١) أخرجه أبو عوانة بهذا اللفظ وهو صحيح

دعيت في ليلة من ليالي شهر رمضان قبل سنتين إلى لقاء مباشر في إحدى القنوات الفضائية.. كان اللقاء حول أحوال العبادة في رمضان.. وكان انعقاد اللقاء في مكة المكرمة في غرفة بأحد الفنادق مطلة على الحرم..

كنا نتحدث عن رمضان.. والمشاهدون يرون من خلال النافذة التي خلفنا المعتمرين والطائفين خلفنا على الهواء مباشرة.. كان المنظر مهيباً.. حتى إن مقدم البرنامج رق قلبه وبكى أثناء الحلقة.. وكان الجو إيمانياً.. ما أفسده علينا إلا أحد المصورين!!

كان هذا المصور يمسك كاميرا التصوير بيد.. واليد الثانية فيها سيجارة!! وكأنه يريد أن لا تضيع عليه لحظة من ليل رمضان إلا وقد أشبع رئتيه سيجاراً!! أزعجني هذا كثيراً.. وخنقني وصاحبي الدخان.. لكن لم يكن بد من الصبر.. فاللقاء مباشر.. وما حيلة المضطر إلا ركوبها!!

مضت ساعة كاملة.. وانتهى اللقاء بسلام.. أقبل إليَّ المصور - والسيجارة في يده - شاكراً مثنياً.. فشددت على يده وقلت:

- وأنت أيضاً أشكرك على مشاركتك في تصوير البرامج الدينية.. ولي إليك كلمة لعلك تقبلها..
- قال: تفضل.. تفضل..
- قلت: الدخان والسجاير..
- فقاطعني: لا تنصحني.. والله ما فيه فائدة يا شيخ..
- قلت: طيب اسمع مني.. أنت تعلم أن السجاير حرام وأن الله يقول..

- فقاطعني مرة أخرى: يا شيخ لا تضيع وقتك.. أنا مضى لي أكثر من أربعين سنة وأنا أدخن.. الدخان يجري في عروقي.. ما فيه فائدة.. كان غيرك أشطر!!
- قلت: يعني ما فيه فائدة؟!!
- فأحرج مني وقال: ادع لي.. ادع لي..
- فأمسكت يده وقلت: تعال معي..
- قال: إلى أين؟
- قلت: تعال ننظر إلى الكعبة..

فوقفنا عند النافذة المطلة على الحرم.. فإذا كل شبر فيه مليء بالناس.. ما بين راكع وساجد.. ومعتمر وباك.. كان المنظر فعلاً مؤثراً..

- قلت: هل ترى هؤلاء؟
- قال: نعم..
- قلت: جاؤوا من كل مكان.. بيض وسود.. عرب وأعاجم.. أغنياء وفقراء.. كلهم يدعون الله أن يتقبل منهم ويغفر لهم..
- قال: صحيح.. صحيح..
- قلت: أفلا تتمنى أن يعطيك الله ما يعطيهم؟
- قال: بلى..
- قلت: ارفع يديك.. وسأدعو لك.. وأمِّن على دعائي..

رفعت يدي وقلت: اللهم اغفر له.. قال: آمين.. قلت: اللهم ارفع درجته واجمعه مع أحبابه في الجنة.. اللهم... ولا زلت أدعو حتى رق قلبه وبكى.. وأخذ يردد: آمين.. آمين..

فلما أردت أن أختم الدعاء.. قلت: اللهم إن ترك التدخين فاستجب هذا الدعاء وإن لم يتركه فاحرمه منه..

فانفجر الرجل باكياً.. وغطى وجهه بيديه وخرج من الغرفة..

مضت عدة شهور.. فدعيت إلى مقر تلك القناة للقاء مباشر.. فلما دخلت المبنى فإذا برجل بدين يقبل عليَّ ثم يسلم عليَّ بحرارة.. ويقبل رأسي.. وينحني على يدي ليقبلها.. وهو متأثر جداً..

- فقلت له: شكر الله لطفك.. وأدبك.. وأقدر لك محبتك.. لكن اسمح لي فأنا لم أعرفك..

- فقال: هل تذكر المصور الذي نصحته قبل سنتين ليترك التدخين؟!
- قلت: نعم..
- قال: أنا هو.. والله يا شيخ إني لم أدخل سيجارة في فمي منذ تلك اللحظة..

وما دام أني فتحت كتاب ذكرياتي فلأزدك منها.. وما أجمل الذكريات إذا كانت سارة..

في موسم الحج قبل ثلاث سنوات.. ذهبت لإلقاء كلمة في إحدى حملات الحج الكبرى في صلاة العصر.. بعد الكلمة ازدحم الناس يسألون ويسلمون.. حاولت التخلص السريع لارتباطي بمحاضرة بعدهم فوراً في حملة أخرى.. لاحظت من بينهم شاب يقدم رجلاً ويؤخر أخرى.. مستحٍ أن يزاحم الناس.. التفتُّ إليه.. ومددت يدي نحوه فصافحني.. ثم سألته في وسط الزحام..:

- عندك سؤال؟
- قال: نعم..

- فجررته إليَّ والناس مزدحمون.. حتى اقترب.. قلت: ما سؤالك؟
- فقال وهو مستعجل: ذهبت لرمي الجمرات.. معي جدتي وأختي.. وكان زحاماً شديداً.. و...

انتهى من سؤاله.. فأجبته عليه.. شممت منه خلال ذلك رائحة دخان.. فتبسمت وسألته:

- تدخن؟
- قال: نعم..
- قلت: أسأل الله أن يغفر لك.. ويتقبل حجك.. إن تركت التدخين من هذه اللحظة..

سكت الشاب.. كان واضحاً من وجهه أنه تأثر بالكلام..

مضت ثمانية أشهر.. فذهبت لإلقاء محاضرة في إحدى المدن.. أقبلت إلى المسجد.. فإذا شاب وقور ينتظرني عند بابه.. تفاجأت به لما رآني.. يقبل عليَّ متحمساً ويسلم بحرارة.. لم أعرفه.. لكني بادلته السلام والترحيب..

- قال: هل عرفتني..
- قلت: أشكر لك لطفك.. ومحبتك.. لكني لم أعرفك..
- قال: هل تذكر الشاب المدخن الذي قابلته في الحج.. ونصحته بترك التدخين؟
- قلت: نعم.. نعم..
- قال: أنا هو.. أبشرك ولله الحمد أني ما وضعت السيجارة في فمي منذ تلك اللحظة.. تركت التدخين.. فصلحت كثير من أمور حياتي..

هززت يده مشجعاً.. ومضيت.. وقد أيقنت أن الدعاء للناس في وجوههم.. وهم يسمعون.. ربما يكون أكثر تأثيراً من النصح المباشر..

ومثله لو رأيت شاباً باراً بأبيه.. فقلت له: جزاك الله خيراً.. الله يوفقك.. الله يجعل أولادك بارين بك.. بلا شك أن هذا الدعاء سيكون دافعاً له أكثر..

كان النبي الأكرم.. عليه أفضل الصلاة والتسليم.. مبدعاً في استعمال الدعاء لدعوة الناس وكسبهم والتأثير فيهم لتقريبهم للدين..

(الطفيل بن عمرو) كان سيداً مطاعاً في قبيلته دوس.. قدم مكة يوماً في حاجة.. فلما دخلها.. رآه أشراف قريش.. فأقبلوا عليه.. وقالوا:

- من أنت؟
- قال: أنا (الطفيل بن عمرو).. سيد دوس..

فخافت قريش أن يقابل (الطفيل) النبي ﷺ فيدخل في الإسلام..

- فقالوا: إن ههنا رجل في مكة يزعم أنه نبي.. فاحذر أن تجلس معه أو تسمع كلامه.. فإنه ساحر.. إن استمعت إليه ذهب بعقلك..
- قال (الطفيل): فوالله ما زالوا بي يخوفونني منه.. حتى أجمعتُ ألا أسمع منه شيئاً.. ولا أكلمه.. بل حشوت في أذنيَّ كرسفاً - وهو القطن - خوفاً من أن يبلغني شيء من قوله.. وأنا مارّ به..

قال (الطفيل): فغدوت إلى المسجد.. فإذا رسول الله ﷺ قائم يصلي عند الكعبة.. فقمت منه قريباً.. فأبى الله إلا أن يسمعني بعض قوله.. فسمعت كلاماً حسناً.. فقلت في نفسي: واثكل أمي! والله إني لرجل لبيب.. ما يخفى عليَّ الحسنُ من القبيح.. فما يمنعني أن أسمع من هذا الرجل ما يقول.. فإن كان الذي به حسناً قبلته.. وإن كان قبيحاً تركته..

فمكثت حتى قضى صلاته.. فلما قام منصرفاً إلى بيته تبعته.. حتى إذا دخل بيته دخلت عليه.. فقلت: يا (محمد).. إن قومك قالوا لي كذا وكذا.. والله ما بَرِحوا يخوّفونني منك حتى سددت أذني بكرسف لئلا أسمع قولك.. وقد سمعت منك قولاً حسناً.. فاعرض عليَّ أمرك..

فابتهج النبي ﷺ.. وفرح.. وعرض الإسلام على (الطفيل).. وتلا عليه القرآن.. فتفكرّ (الطفيل) في حاله.. فإذا كل يوم يعيشه يزيده من الله بعداً.. وإذا هو يعبد حجراً!! لا يسمع دعاءه إذا دعاه.. ولا يجيب نداءه إذا ناداه.. وهذا الحق قد تبيّن له.. ثم بدأ (الطفيل) يتفكر في عاقبة إسلامه.. كيف يغير دينه ودين آبائه!!.. ماذا سيقول الناس عنه؟!.. حياته التي عاشها!.. أمواله التي جمعها!.. أهله!.. ولده!.. جيرانه!.. خلانه!.. كل هذا سيضطرب..

سكت (الطفيل).. يفكر.. يوازن بين دنياه وآخرته.. وفجأة إذا به يضرب بدنياه عرض الحائط.. نعم سوف يستقيم على الدين.. وليرض من يرضى.. وليسخط من يسخط.. وماذا يكون أهل الأرض.. إذا رضي أهل السماء.. ماله ورزقه بيد من في السماء.. صحته وسقمه بيد من في السماء.. منصبه وجاهه بيد من في السماء.. بل حياته وموته بيد من في السماء.. فإذا رضي أهل السماء.. فلا عليه ما فاته من الدنيا.. إذا أحبه الله.. فليبغضه بعدها من شاء.. وليتنكر له من شاء.. وليستهزئ به من شاء..

فليتك تحلو والحياة مريرة ... وليتك ترضى والأنام غضاب
وليت الذي بيني وبينك عامر ... وبيني وبين العالمين خراب
إذا صح منك الود فالكل هين ... وكل الذي فوق التراب تراب

نعم.. أسلم (الطفيل) في مكانه.. وشهد شهادة الحق.. ثم ارتفعت همته.. فقال:
يا نبي الله.. إني امرؤ مطاع في قومي.. وإني راجع إليهم وداعيهم إلى الإسلام..

ثم خرج (الطفيل) من مكة.. مسرعاً إلى قومه.. حاملاً همَّ هذا الدين.. يصعد به جبل.. وينزل به واد.. حتى وصل ديار قومه.. فلما دخلها.. أقبل إليه أبوه.. وكان

شـيخاً كبيراً.. كبر سنه واقتربت منيته وهو يعبد الأصنام.. فأراد (الطفيل) أن يتَبع معه أسلوباً حازماً يدعوه به إلى الإسلام..

- فقال (الطفيل): إليك عني يا أبت.. فلست منك ولست مني..
- فزع أبوه وقال: ولمَ يا بني؟
- قلت: أسلمتُ وتابعت دين محمد ﷺ..
- قال الأب: أي بنيّ ديني دينك..
- قلت: فاذهب فاغتسل وطهر ثيابك.. ثم ائتني حتى أعلمك مما عُلِّمت..

فذهب أبوه واغتسل وطهر ثيابه.. ثم جاء فعرض عليه الإسلام.. فأسلم..

ثم مشى (الطفيل) إلى بيته.. فأتته زوجته مرحبة..

- فقال: إليك عني.. فلستُ منكِ ولستِ مني..
- قالت: ولم؟ بأبي أنت وأمي..
- قال: فرَّق بيني وبينك الإسلام.. وتابعت دين محمد ﷺ..
- قالت: فديني دينك..
- قلت: فاذهبي فتطهري.. ثم ارجعي إليَّ..

فولّته ظهرها ذاهبة.. ثم خافت من صنمهم أن يعاقبها في أولادها إن تركت عبادته.. فرجعت إليه وقالت:

- بأبي أنت وأمي.. أما تخشى على الصبية من ذي الشرى..؟

وذو الشرى صنم عندهم يعبدونه.. وكانوا يرون أن من ترك عبادته أصابه أو أصاب ولده بأذى..

- فقال (الطفيل): اذهبي.. أنا ضامن لك أن لا يضرهم ذو الشرى..

فذهبت فاغتسلت.. ثم عرض عليها الإسلام فأسلمت..

ثم جعل (الطفيل) يطوف في قومه.. يدعوهم إلى الإسلام بيتاً بيتاً.. يقبل عليهم في نواديهم.. ويقف عليهم في طرقاتهم.. لكنهم أَبَوْا إلا عبادة الأصنام.. فغضب (الطفيل).. وذهب إلى مكة.. فأقبل على رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله.. إن دَوْساً قد عصت وأبت.. يا رسول الله.. فادع الله عليهم..

فتغير وجه النبي ﷺ.. ورفع يديه إلى السماء..

فقال (الطفيل) في نفسه: هلكت دوْس..

فإذا بالرحيم الشفيق ﷺ.. يقول: «اللهم اهْد دوساً.. اللهم اهْدِ دوساً..

ثم التفت إلى (الطفيل) وقال: ارجع إلى قومك.. فادعُهم.. وارفق بهم..

فرجع إليهم.. فلم يزل بهم.. حتى أسلموا..

نعم.. ما أحسن قَرْع أبواب السماء.. ليس مع (الطفيل) وقومه فقط.. وإنما غيرهم كثير..

كان المسلمون في بداية الدعوة النبوية قِلّة.. لم يتعدوا ثمانية وثلاثين رجلاً.. ألحَّ (أبو بكر) يوماً على رسول الله ﷺ في الظهور أمام الناس بالدعوة والجهر بالإسلام..

فقال ﷺ: يا (أبا بكر).. إنّا قليل..

كان (أبو بكر) رضي الله عنه متحمساً.. فلم يزل يلحّ على رسول الله ﷺ حتى اجتمعوا فخرجوا.. يتقدمهم رسول الله ﷺ.. توجهوا إلى المسجد الحرام.. تفرقوا في نواحي المسجد.. كل رجل في عشيرته.. وقام (أبو بكر) في الناس خطيباً.. يدعو إلى الإسلام.. ويذم آلهتهم..

ثار المشركون على المسلمين.. فضربوهم في نواحي المسجد ضرباً شديداً.. كان المشركون كثير.. فتفرق المسلمون..

أقبل جمع من المشركين إلى (أبي بكر).. وضربوه ضرباً شديداً.. فوقع على الأرض في شدة الرمضاء.. فدنا منه الفاسق (عتبة بن ربيعة).. فجعل يضربه بنعلين مخصوفين.. ويفركهما على وجهه.. ثم قام على بطن (أبي بكر).. حتى سالت الدماء من وجه (أبي بكر).. وتمزق لحم وجهه.. حتى ما يعرف فمه من أنفه..

وجاء بنو تيم قبيلة (أبي بكر).. يتعادَوْن.. وأبعدوا الناس عن (أبي بكر).. وحملوه في ثوب حتى أدخلوه منزله.. وهم لا يشكّون أنه ميت.. ثم رجع قومه بنو تيم.. فدخلوا المسجد.. وجعلوا يصرخون في المشركين.. يقولون: والله لئن مات (أبو بكر) لنقتلن (عتبة بن ربيعة)..

ثم رجعوا إلى (أبي بكر).. وهو مغمى عليه.. لا يدرون.. حي أو ميت!! ظل (أبو قحافة) والد (أبي بكر).. مع قومه.. واقفين عند (أبي بكر).. يكلمونه.. فلا يجيبهم.. وأمه تبكي عند رأسه.. فلما كان آخر النهار.. فتح عينيه.. فكان أول كلمة قالها: ما فعل رسول الله ﷺ..؟!

رضي الله عن (أبي بكر).. كان يهيم برسول الله ﷺ حباً.. يخاف عليه أكثر مما يخاف على نفسه.. كان كل من حوله.. أبوه.. أمه.. قومه.. مشركين.. فغضبوا.. وجعلوا يسبون رسول الله ﷺ.. ثم قاموا.. وقالوا لأم (أبي بكر): أطعميه شيئاً أو اسقيه..

فجعلت أمه تلح عليه.. وهو يردد قائلاً:

- ما فعل رسول الله ﷺ..؟
- فقالت: والله ما لي علم بصاحبك..

- **فقال:** اذهبي إلى (أم جميل بنت الخطاب).. فسليها عنه..

وكانت (أم جميل) مسلمة تكتم إسلامها.. خرجت أمه حتى جاءت (أم جميل)..

- **فقالت:** إن (أبا بكر) يسألك عن (محمد بن عبدالله)؟!
- **فقالت:** ما أعرف (أبا بكر).. ولا (محمد بن عبدالله).. لكن أتحبين أن أمضي معك إلى ابنك؟
- **قالت:** نعم..

فمضت معها.. حتى دخلت على (أبي بكر).. فوجدته صريعاً دنفاً.. ممزق الوجه.. مرهق الجسد.. فلما رأته (أم جميل) صاحت.. وقالت:

- والله إن قوماً نالوا هذا منك لأهل فسق وكفر.. وإني لأرجو أن ينتقم الله لك منهم..

التفت إليها (أبو بكر) بعينين مرهقتين.. وجسد مصاب.. ووجه ممزَق.. وقلب كبير مليء بمحبة الدين..

- **وقال:** فما فعل رسول الله ﷺ..

وكانت (أم أبي بكر) بجانبها.. فخافت (أم جميل) أن يُفْضَحَ أمر إسلامها.. فيؤذوها..

- **فقالت:** يا (أبا بكر).. هذه أمك تسمع..
- **قال:** فلا شيء عليك منها..
- **قالت:** أبشر.. فرسول الله ﷺ.. سالم صالح..
- **قال:** فأين هو؟
- **قالت:** في دار أبي الأرقم..

➤ **فقالت أمه:** قد علمت خبر صاحبك.. فقم فكُلْ طعاماً.. أو اشرب..

➤ **قال:** فإن لله عليَّ أن لا أذوق طعاماً أو شراباً.. حتى أرى رسول الله ﷺ بعيني..

فانتظرتا.. حتى إذا هدأ الناس.. خرجتا به يجّر خطاه على الأرض من شدّة الإعياء.. فذهبتا به إلى بيت (أبي الأرقم).. حتى أدخلتاه على رسول الله ﷺ..

فلما دخل فإذا وجه جريح.. ودماء تسيل.. وثياب ممزقة.. فرآه رسول الله ﷺ.. فأكب عليه النبي ﷺ يقبله.. وأكبّ عليه المسلمون يقبلونه.. ورقَّ له رسول الله ﷺ رقة شديدة.. حتى ظهر التأثر على وجهه الشريف ﷺ.. فأراد (أبو بكر) أن يخفف عليه.. فقال: بأبي وأمي يا رسول الله.. ليس من بأس.. إلا ما نال الفاسق من وجهي..

ثم قال (أبو بكر).. وهو البطل الذي يحمل هم الدعوة.. ويحسن استثمار المواقف مهما كان حاله.. كان جريحاً.. جائعاً عطشان.. ومع ذلك.. قال: يا رسول الله.. هذه أمي برة بوالديها.. وأنت مبارك.. فادعها إلى الله عز وجل.. وادع الله لها.. عسى الله أن يستنقذها بك من النار..

فدعا لها رسول الله ﷺ.. ثم دعاها إلى الله عز وجل.. فأسلمت فوراً في مكانها..

كان الدعاء أصلاً من الأصول التي يتعاملون بها.. أسلم (أبو هريرة) رضي الله عنه.. وبقيت أمه كافرة.. كان يدعوها إلى الإسلام فتأبى.. فدعاها يوماً.. وألحَّ فأسمعته في رسول الله ﷺ ما يكره..

فضاق صدر (أبي هريرة) بذلك.. وذهب إلى رسول الله ﷺ وهو يبكي.. فقال: يا رسول الله.. إني كنت أدعو أمي إلى الإسلام فتأبى عليَّ.. وإني دعوتها اليوم فأسمعتني فيك ما أكره.. فادع الله يا رسول الله أن يهدي (أم أبي هريرة) إلى الإسلام..

فدعا لها رسـول الله ﷺ.. فرجع (أبو هريـرة) إلى أمه.. فلما كان على الباب.. فإذا هو مغلق.. فحركه ليدخل.. فإذا بأمه تفتح له الباب.. وتقول: أشهد أن لا إله إلا الله.. وأن محمداً رسول الله..

فرجع (أبو هريرة) إلى رسول الله ﷺ وهو يبكي من الفرح.. وجعل يقول: أبشر يا رسول الله.. قد استجاب الله دعوتك.. وهدى الله أم أبي هريرة إلى الإسلام..

ثم قال (أبو هريرة): يا رسول الله.. أدع الله أن يحبّبني وأمي إلى عباده المؤمنين.. ويحببهم إلينا..

فقال ﷺ: اللهم حبب عبيدك هذا وأمه إلى عبادك المؤمنين.. وحببهم إليهما..

قال أبو هريرة: فما على الأرض مؤمن ولا مؤمنة.. إلا وهو يحبني وأحبه..[1]

(١) رواه مسلم.

الترقيع!!

أحياناً عند ممارستنا لبعض المهارات مع الآخرين نكتشف بأننا أخطأنا تقدير المهارة المناسبة للشخص.. أو قد نكون وضعناها في غير موضعها..

مثل من رأى شاباً وسيماً.. فأراد أن يمارس معه مهارة «كن لماحاً» فقال له:

ما شاء الله ما هذه الثياب الجميلة والرونق البهي والوجه المسفر..

ثم بَدَلَ أن يقول: ما أسعد زوجتك بك.. قال:

يا ليتك بنتاً حتى أتزوجك!!!

مزحة ثقيلة جداً.. أليس كذلك؟!

قال أحد الزملاء: في الجامعة كان لديَّ طالب بليد لكن الله تعالى عوضه عن بلادته بشيء من الوسامة.. وكان يجلس في آخر القاعة دائماً.. ويسرح بفكره بعيداً.. كنت أطلب منه دائماً أن يجلس في الأمام ليتابع.. وهو يتغافل عن ذلك.. كنت أتجنب إحراجه أو إحراج غيره من الطلاب فهم كبار في المرحلة الجامعية.. دخلت يوماً فإذا هو منشغل آخر القاعة كعادته.. فلما جلست على الكرسي قلت له:

- يا عبد المحسن.. تعال في الأمام..
- فقال: يا دكتور مكاني مناسب وسأنتبه معك..
- فقلت: يا أخي اقترب قليلاً خلنا نشوف خدودك الحلوة..

التفت بعض الطلاب إليه معلقين.. فانقلب وجهه أحمر.. شعرت أني وقعت في حفرة..

فقلت - مُرقّعاً: الله يا هي بتنبسط البنت اللي بتتزوجك.. أما هؤلاء فسيتعبون ليجدوا من توافق على الزواج بهم!!.. ثم بدأت في شرح الدرس فوراً دون أن أترك فرصة لأحد ليفكر في الموقف أصلاً.. تبسم الطالب وانبلجت أساريره وجلس في المقدمة..

وإن كانت هذه الأخطاء قد تقع في بداية التدرب على ممارسة المهارات لكنها سرعان ما تزول.. وأحياناً يكون تصرفك المحرج للآخرين أو المحزن لهم ليس خاطئاً.. لكن الموقف يفرضه علينا..

مثل أن يختلف اثنان من زملائك.. فترى أن الحق مع أحدهما فتقف معه.. وقد تعاتب الآخر.. أو قد يقع ذلك بين اثنين من أولادك أو طلابك أو جيرانك.. أو غيرهم..

فما الحل؟

هل نسمح لهذه المواقف أن تفقدنا الناس واحداً تلو الآخر.. ونحن نتعب في استقطابهم والتحبب إليهم..؟!

كلا.. إذن ما التصرف الصحيح؟

الجواب: إنك إذا أحسست أن أحداً ضاق صدره من كلمة صدرت منك.. أو تضايق من تصرف معين.. فسارع فوراً إلى مداواة الجرح قبل أن يلتهب.. باستعمال أي مهارة أخرى مناسبة..

كيف؟! خذ مثالاً..

كانت مكة قبل أن يفتحها المسلمون تحت قبضة كفار قريش.. وكانوا قد ضيقوا على المسلمين المستضعفين فيها.. وسيطروا على أبناء المسلمين الذين هاجروا ولم يستطيعوا أخذ أبنائهم معهم.. فعلاً كانت حال المسلمين عصيبة..

أقبل النبي ﷺ إلى مكة معتمراً فردته قريش.. وكان ما كان من قصة الحديبية.. وكتب ﷺ بينه وبين قريش صلحاً.. واتفق معهم أن يرجع إلى المدينة من غير عمرة على أن يأتي في العام القادم ويعتمر..

ومضى ﷺ إلى المدينة.. وبعد سنة أقبل ﷺ مع الصحابة محرمين ملبين.. ودخلوا مكة.. واعتمروا.. ولبث ﷺ فيها أربعة أيام.. فلما توجّه خارجاً منها إلى المدينة تبعته طفلة صغيرة هي ابنة (حمزة) رضي الله عنه.. وكان قد قتل في معركة أحد.. وبقيت ابنته يتيمة في مكة..

أخذت الصغيرة تنادي رسول الله ﷺ.. تقول: يا عم يا عم.. وكان (عليّ) رضي الله عنه يسير بجانب النبي ﷺ مع زوجته الصالحة (فاطمة) - رضي الله عنهما - بنت رسول الله ﷺ.. فتناولها (عليّ) رضي الله عنه فأخذ بيدها وناولها لفاطمة وقال: دونك ابنة عمك.. فحملتها (فاطمة)..

فلما رآها (زيد) رضي الله عنه.. تذكر أن رسول الله ﷺ قد آخى بينه وبين (حمزة) لما هاجر إلى المدينة.. فأقبل (زيد) ثمّ وهو يقول: بنت أخي.. أنا أحق بها..

أقبل (جعفر) وقال: ابنة عمي وخالتها زوجتي.. يعني (أسماء بنت عميس) زوجته.. وأنا أحق بها..

فقال عليّ: أنا أخذتها وهي ابنة عمي..

فلما رأى ﷺ اختلافهم.. قضى بها لخالتها ودفعها إلى (جعفر) ليكفلها.. وقال: الخالة بمنزلة الأم..

ثم خشي ﷺ أن يجد (علي) أو (زيد) في نفسيهما.. لما نزعها منهما..

فقال مواسياً لعليّ: أنت مني وأنا منك..

وقال لزيد: أنت أخونا ومولانا..

ثم التفت إلى(جعفر) وقال: أشبهت خَلْقي وخُلُقي..

فانظر كيف كان ﷺ حكيماً ماهراً في غسل قلوب الآخرين وكسب محبتهم..

طيب.. ما رأيك أن نعود إلى قصة صاحبنا الذي قال:

يا ليتك بنتاً حتى أتزوجك!!

كيف يرقع ما خرّق؟!!

بين يديه عدة أبواب للهرب.. منها:

- أن يدخل في موضوع آخر مباشرة - لئلا يترك للسامع فرصة ليفكر في الجملة الجارحة التي سمعها منه -

فيقول مثلاً: الله يرزقك حورية أجمل منك..

قُلْ: آمين..

- أو يطرح موضوعاً بعيداً تماماً.. كأن يسأله عن أخيه المسافر.. أو سيارته الجديدة.. أو نحوها.. لئلا يترك له أو لغيره من السامعين حوله أي فرصة للوقوع في الحرج..

انظر بعينين

نحن نبدع دائماً في رؤية أخطاء الناس وملاحظتها.. وربما في تنبيههم عليها.. ولكننا قلّما نبدع في رؤية الخير الذي عندهم.. والانتباه إلى الصواب الذي يمارسونه.. لنمدحهم به..

قُلْ ذلك مثلاً في المدرس مع طلابه.. فكل المدرسين يذمون الطالب البليد المهمل في واجباته.. الكسول المتأخر في الحضور دائماً.. لكن القليل منهم من يمدح الطالب المجد.. الذي يحضر مبكراً وخطه حسن وكلامه جيد..

كثيراً ما نُنبِّه أولادنا إلى أخطائهم.. لكنهم يحسنون ولا ننتبه إلا قليلاً.. مما يجعلنا أحياناً نفوت فرصاً كثيرة كنا من خلالها نستطيع أن ننفذ إلى قلوب الناس.. فمن أبدع مهارات الكلام.. أن تمتدح الخير الذي عند الناس..

كان قوم (أبي موسى الأشعري) رضي الله عنه لهم اهتمام بتلاوة القرآن وحفظه.. وربما فاقوا كثيراً من الصحابة في كثرة تلاوته وتحسين الصوت به.. فرافقوا النبي ﷺ يوماً في سفر.. فلما أصبح الناس.. واجتمعوا قال ﷺ:

إني لأعرف أصوات رفقة الأشعريين بالقرآن حين يدخلون بالليل.. وأعرف منازلهم.. من أصواتهم بالقرآن بالليل.. وإن كنت لم أر منازلهم حين نزلوا بالنهار..[1]

فكأنك بالأشعريين وهم يستمعون هذا الثناء أمام الناس يتوقّدون حرصاً بعدها على الخير..

وفي ذات صباح.. لقي النبي ﷺ (أبا موسى).. فقال له:

(١) متفق عليه

➤ لو رأيتني البارحة وأنا أستمع لقراءتك.. لقد أوتيت من مزامير آل (داود)..

فابتهج (أبو موسى).. وطار فرحاً.. وقال:

➤ لو علمت أنك تستمع لقراءتي.. لحبرتها لك تحبيراً..[١]

نعم.. كان رسول الله ﷺ لا يكتم مشاعره.. بل يُفضي بها إلى أهلها.. فهو كما يقول للمسيء: أسأت.. يقول أيضاً للمحسن: أحسنت..

كان (عمرو بن تغلب) رضي الله عنه رجلاً من عامة الصحابة.. لم يتميز بعلم كما تميز (أبو بكر).. ولا بشجاعة كما تميز (عمر).. ولا بقوة حفظ كأبي هريرة.. لكن قلبه كان مملوءاً إيماناً.. وكان ﷺ يلحظ ذلك فيه..

فبينما كان النبي ﷺ جالساً يوماً.. إذ جيء إليه بمال فجعل يقسمه بين بعض أصحابه وهو ﷺ له منهج واضح في قسمة أموال الصدقات.. والغنائم.. أو قسمة ما يأتيه من هدايا.. فلم يكن الأمر عنده جُزافاً.. أو ضبط عشواء.. كلا.. وحاشاه..

فأعطى رجالاً.. وترك رجالاً.. فكأن الذين تركهم وجدوا في أنفسهم.. وعَتبوا.. لماذا لم يعطنا.. فلما علم ﷺ بذلك أراد أن يسلّ ما في القلوب قبل أن يكبر.. فقام أمام الناس.. فحمد الله تعالى ثم أثنى عليه.. ثم قال:

أما بعد.. فوالله إني لأعطي الرجل.. وأدع الرجل.. والذي أَدع أحبُّ إليَّ من الذي أُعطي.. ولكني أُعطي أقواماً لما أرى في قلوبهم من الجزع والهلع.. وأَكِلُ أقواماً إلى ما جعل الله في قلوبهم من الخير.. منهم: (عمرو بن تغلب)..

فلما سمع (عمرو بن تغلب) هذا الثناء على الملأ.. طار فرحاً.. وكان يُحَدِّث بهذا الحديث بعدها.. ويقول:

فوالله ما أحب أن لي بكلمة رسول الله ﷺ حمر النعم..[٢]

(١) رواه الحاكم بهذا اللفظ وهو صحيح، وأصله في الصحيحين.
(٢) رواه البخاري

وفي يوم آخر.. أقبل (أبو هريرة) رضي الله عنه.. فسأل النبي ﷺ.. قائلاً:

➤ من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة؟..

فعلاً سؤال رائع.. أحسن ممّ يشغله ﷺ بسؤاله متى الساعة..

➤ فقال ﷺ - مشجعاً -: لقد كنت أظن أن لا أحد يسأل عن هذا قبلك.. لما رأيت من حرصك على العلم.. أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة.. من قال: لا إله إلا الله خالصاً من قلبه..

و(سلمان الفارسي).. كان من خيار الصحابة.. لم يكن من العرب.. بل كان ابناً لأحد كبار فارس.. وكان أبوه يحبه ويقربه.. لدرجة أنه كان يحبسه في البيت خوفاً عليه..

أدخل الله الإيمان في قلب (سلمان) رضي الله عنه.. خرج من بيت أبيه.. سافر إلى الشام باحثاً عن الحق.. احتال بعض الناس عليه وباعوه إلى يهودي على أنه عبد مملوك.. وحصلت له قصة طويلة.. حتى وصل إلى رسول الله ﷺ.. فكان النبي ﷺ يقدر له ذلك..

فبينما كان ﷺ جالساً بين أصحابه يوماً.. إذا أنزلت عليه سورة الجمعة.. فجعل ﷺ يقرؤها على أصحابه.. وهم يستمعون.. وهو يقرأ:

﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾[1]..

فلما قرأ: ﴿ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[2]..

قال رجل من الصحابة: من هؤلاء يا رسول الله؟

فسكت النبي ﷺ.. فأعاد الرجل السؤال.. من هؤلاء يا رسول الله؟

(١) الجمعة: ٢
(٢) الجمعة: ٣

فلم يرد عليه.. فأعاد: من هؤلاء يا رسول الله؟

فالتفت النبي ﷺ إلى (سلمان).. ثم وضع يده عليه وقال:

لو كان الإيمان عند الثريا.. لناله رجال من هؤلاء..[1]

(١) متفق عليه

فن الاستماع

مهـارات جذب الناس وكسـب قلوبهم متنوعة.. بعضها يكون بفعل الشـيء.. وبعضها يكون بتركه.. فالابتسـامة تجذبهم.. كما أن ترك العبوس يجذبهم.. والأحاديث الجميلة والنكات واللطائف تجذب الناس.. كما أن الاسـتماع إليهم والتفاعل مع أحاديثهم.. يجذبهم..

فما رأيك أن أتكلم معك هنا عن الهدوء الجذاب؟!

نعـم.. بعـض النـاس لا يتكلـم كثـيراً.. ولا تكاد تسـمع صوتـه في المجالس والتجمعـات.. بل لو راقبته في جلسـة أو نزهة.. لرأيته لا يتحرك منه إلا رأسـه وعينـاه.. وقد يتحـرك فمه أحياناً.. لكن بالتبسـم.. لا بالـكلام!! ومع ذلك يحبه الناس.. ويأنسون بمجالسته..

تدري لماذا؟! لأنه يمارس الهدوء الجذاب..

فن الاسـتماع له مهـارات متعددة.. بل حدثني أحـد المهتمين أنه حضر أكثر من خمس عشرة دورة تدريبية في مهارات الاستماع..!!

قارن بين:

- رجل إذا تكلمت بين يديه بقصة وقعت لك.. قاطعك في أولها وقال: وأنا أيضاً وقع لي شـيء مشـابه.. فتقول: لـه اصبر حتى أكمل.. فيسـكت قليلاً.. فإذا انسـجمت في قصتك.. قاطعـك قائلاً: صحيح.. صحيـح.. نفس القصة التي وقعـت لي وهي أنني ذات مرة ذهبت... فتقول له: أخي انتظر.. فيسـكت.. ثم ما يصبر فيقاطعك قائلاً: عجل.. عجل.. هذا الأول..

- الثاني.. كان وأنت تتحدث معه أو معهم.. يتلفت يميناً ويساراً.. وقد يخرج جهاز هاتفه من جيبه.. ويكتب رسالة أو يقرأ شيئاً من الرسائل.. أو من يدري لعله يلعب بالألعاب الإلكترونية الموجودة فيه!!
- أما الثالث.. فيملك مهارات الاستماع.. تجد أنك تتحدث وقد ركز عينيه برفق ينظر إليك.. وتشعر بمتابعته.. فهو تارة يهز رأسه موافقاً.. وتارة يبتسم.. وتارة يضمّ شفتيه متعجباً.. وربما ردد: عجيب.. سبحان الله..

أي هؤلاء ستكون راغباً دائماً في مجالسته.. وتفرح بزيارته.. وتنبلج أساريرك في الحديث معه..؟

لا أشك أنه الأخير..

إذن جذب قلوب الناس.. لا يكون فقط بإسماعهم ما يحبون.. بل وبالاستماع منهم لما يحبون!!

أذكر أن أحد الدعاة البارزين ممن أوتي منطقاً ولساناً.. كان يتنقل متحدثاً دائماً.. ما بين منبر جمعة.. وكرسي فتوى.. ومحاضرة في جامعة.. فهو دائماً يتكلم.. ويتكلم.. ويتكلم.. وكان الناس يرونه على المنابر والقنوات الفضائية ويحبونه ويرغبون في استماع حديثه..

إلا زوجته.. فهو معها في البيت دائماً.. ولا يكاد يستمع منها حديثاً أو قصة.. بل على عادته يتكلم.. ويتكلم..

كانت كثيرة التذمر منه دون أن ينتبه إلى سبب ذلك.. كل الناس يكرمونه ويمدحونه إلا هي.. فقرر أن يصطحبها معه يوماً إلى إحدى محاضراته لترى ما لم تر..

قال لها يوماً:

- ترافقيني؟
- قالت: إلى أين؟
- قال: محاضرة لأحد الدعاة.. نستفيد منها..

ركبت معه في سيارته.. مشيا.. وقفا عند المسجد.. كانت الجماهير غفيرة.. كلهم جاؤوا يستمعون إلى هذا المحاضر الفذ..

دخلت هي إلى قسم النساء.. ودخل هو وسط جمهرة الناس واعتلى الكرسي وبدأ محاضرته.. كان الناس ينصتون معجبين.. حتى زوجته يبدو أنها كانت معجبة..!

انتهت المحاضرة.. خرج إلى سيارته وسط نشوة النجاح.. وأقبلت زوجته وركبت السيارة بجانبه.. لم يدع لها فرصة.. بدأ يتكلم فوراً عن زحمة الناس.. وجمال المسجد.. و...

- ثم سألها: ما رأيك في المحاضرة؟
- فقالت: كانت جميلة ومؤثرة.. ولكن.. من المحاضر؟
- قال: عجباً! لم تعرفي صوته!!
- قالت: مع زحمة الناس.. وضعف سماعات الصوت لم أنتبه كثيراً..
- فقال - منتشياً -: أنا.. أنا المحاضر..
- فقالت: آآآ.. وأنا أقول في نفسي طوال جلوسي: ما أكثر كلامه..

إذن.. الاستماع إلى الناس فن ومهارة.. بعض الناس ينسى أن الله جعل لك لساناً واحداً وأذنين.. ليستمع أكثر مما تكلم.. وأظنه لو استطاع لقلب المعادلة فجعل لنفسه أذناً ولسانين.. من شدة محبته للحديث.. فعوِّد نفسك على الإنصات لكلام الآخرين.. حتى لو كان لك على الكلام ملاحظة.. فلا تستعجل..

في أوائل بعثة النبي ﷺ.. كان عدد المسلمين قليلاً.. وكان الكفار يكذبونه وينفرون الناس عنه.. ويشيعون أنه ﷺ كاهن وكذاب.. وربما أشاعوا أنه مجنون أو ساحر.. في يوم من الأيام قدم إلى مكة رجل اسمه (ضماد).. وهو حكيم له علم بالطب والعلاج.. يعالج المجنون والمسحور.. فلما خالط الناس سمع سفهاء الكفار يقولون عن رسول الله ﷺ: جاء المجنون.. رأينا المجنون..

فقال (ضماد): أين هذا الرجل: لعل الله أن يشفيه على يدي؟

فدله الناس على رسول الله ﷺ.. فلما لقيه (ضماد).. وتأمل في وجه رسول الله ﷺ.. فإذا وجه مشرق وزين.. لكن (ضماداً) صرّح بما جاء لأجله وقال:

- يا (محمد).. إني أرقي من هذه الرياح.. وإن الله يشفي على يدي من شاء.. فهلم أعالجك..

وجعل يتكلم عن علاجه وقدراته.. والنبي ﷺ ينصت إليه.. وذاك يتكلم.. والنبي ﷺ ينصت!!

أتدري ينصت إلى ماذا؟ ينصت إلى كلام رجل كافر جاء ليعالجه من مرض الجنون!! آآآه ما أحكمه ﷺ..

حتى إذا انتهى (ضماد) من كلامه.. قال ﷺ بكل هدوء:

- إن الحمدلله.. نحمده ونستعينه.. من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له.. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له..

- فانتفض (ضماد) وقال: أعد عليَّ كلماتك هؤلاء..

فأعادها ﷺ عليه.. فقال (ضماد): والله لقد سمعت قول الكهنة، وقول السحرة، وقول الشعراء، فما سمعت مثل هؤلاء الكلمات.. فلقد بلغن ناعوس البحر.. فهلمَّ يدك أبايعك على الإسلام..

فبسط النبي ﷺ يده.. وأخذ (ضماد) يخلع عن قلبه ثوب الكفر ويردد: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله..

- فعلم ﷺ أن له عند قومه شرفاً.. فقال له: وعلى قومك؟ - أي تدعوهم إلى الإسلام -
- فقال (ضماد): وعلى قومي.. ثم ذهب إلى قومه هادياً داعياً..

إذن.. لتكون مستمعاً ماهراً: أنصت.. هز رأسك متابعاً.. تفاعل بتعابير وجهك كتقطيب الجبين حيناً.. ورفع الحاجبين حيناً آخر.. والتبسم.. وتحريك الشفتين بتعجب.. وانظر إلى أثر ذلك فيمن يتكلم معك.. سواءاً كان صغيراً أو كبيراً.. ستجد أنه يركز نظره عليك.. ويقبل بقلبه إليك..